

وفي هذا الباب الذي ابتدأه بأن من كلام العرب الاختصار المفهم، والأطناب المفخم، يكر أبيتاً جميلة، يفضلها لتخلصها من التكليف، وسلامتها من التزيد، وبعدها من الاستعانة وهي لأبي حية التميمي:

رمتني وستر ا بيني وبينها عشيّة أرآم الكناس رميم
ألا رب يوم لو رمتني رميتها ولكن عهدي بالنصال قديم
والاستعانة – كما فسرّها – أن يدخل في الكلام ما الحاجة بالمستمع إليه ليسح به نظاماً أو
وزناً، إن كان في شعر، أو ليتذكر به ما بعده إن كان في كلام منثور، كنحو ما نسمعه في
كثير من كلام العامة مثل قولهم، الست تسمع أفهمت، أين أنت؟ وما أشبه هذا، وربما تشاغل
العي بقتل أصبعه، ومس لحيته وغير ذلك من بدنه.
قلت: وهذا أصل من أصول النقد، ولو ال أن الجاحظ تحدث عنه في كتابه البيان والتبيين،
لكان من حسنات المبرد الكبار.

هذا، وله نقداً خاطفة، مثورة في كتابة، وفي بعض الكتب التي نقلت عنه فهو يذكر أخذ
الشعراء بعضهم من بعض، ويعيب أبا اعتاهية بكثرة عثارة، وباللحن، وبالخروج عن العروض
أحياناً، ويدخل الاخلاق في جودة الكلام، فيقول عن خطبة لعمر: وإنما حسن هذا القول مع ما
يستحقه من قبل الاختيار بما عضده من الفعل المشاكل له.

ويعيب المناقضة في قول مروان بن أبي حفصة

لي حيله فيمن ينمّ وليس في الكذاب حيلة

من كان يخلق ما يقول فحيلتي فيه قليلة

قال: وقد ناقض هذا الشاعر لأنه قال، وليس في الكذب حيلة، ثم قال فحيلتي فيه قليلة.